مقياس : نص أدبي حديث

الفئة المستهدفة : ليسانس الثالثة (ل م د)

المحاور :

1- الحياة الأدبية قبل ظهور مدرسة الإحياء والبعث .

2- حالة الأدب في العصر الحديث (عصر النهضة) .

3- ظهور مدرسة الإحياء والبعث .

4- ظهور الكلاسكية الجديدة .

5- التيار الذاتي في الشعر العربي الحديث

أولا : جماعة الديوان

ثانيا : تيار الرابطة القلمية

ثالثا : جماعة أبولو

6- قضايا الشعر الجزائري الحديث .

أولا : فترة الأمير عبد القادر

ثانيا : شعر اليقظة (1900-1925)

7- رمضان حمود ونزعة التجديد في الشعر الجزائري الحديث .

الهدف : - إبراز الدور الذي قامت به مدرسة الإحياء والبعث .

- إثبات أن العجز ليس في اللغة ، وإنما في شعراء ذلك العصر.

- مظاهر التجديد عند شعراء التيار الذاتي .

- أهم قضايا الشعر الجزائري الحديث .

المحاضرة الأولى :

الحياة الأدبية قبل ظهور مدرسة الإحياء والبعث

أولا: عصور القوة :

يقصد بعصور القوة ؛ **العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، والعصر الأموي والعصر العباسي** ؛ فقد كان الأدب في العصر الجاهلي قويا ؛ لأنّ العرب كانوا أصحاب فصاحة وبيان بالفطرة ، ولذلك ازدهر الشعر الغنائي وتنوعت أغراضه ، كما ازدهر النثر وتنوعت فنونه بين الخطب والحكم والأمثال والوصايا ، ولما ظهر الإسلام واتصل العرب بالشعوب الفارسية والهندية واليونانية تهيأ للأدب العربي أسباب الازدهار حيث امتزج بثقافة هذه الشعوب وبلغ قمة نضجه في العصر العباسي .

ثانيا : عصور الضعف :

1- العصر المملوكي :

ضعف الأدب العربي في أواخر العصر العباسي بسبب تمزق الوحدة الإسلامية ، واستيلاء التتار بقيادة هولاكو على بغداد سنة 656هـ ، حيث ألقوا بالكتب في نهر دجلة ليعبروه ، كما قاموا بحرق المكتبات ودور العلم ، وعلى الرغم من هزيمة (**هولاكو**) في موقعة (**عين جالوت**) على يد المماليك ، إلا أن حفيده (**تيمور لانك**) جاء بعد قرن ونصف ليثأر لجده فدمّر بغداد ودمشق ، وكان من الطبيعي أن يتسرب الضعف إلى الأدب العربي وبخاصة الشعر وذلك ولعلّ من بين الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف :

1- **انصراف المماليك عن الشعر وعدم تذوقهم لمعانيه .**
2- **توقف الشعراء عن قول الشعر ، وانصرافهم إلى امتهان بعض الحرف وذلك بسبب إهمال الأمراء لهم.**
3- **إرهاق كاهل الشعب بالضرائب والإتاوات .**
4- **الصراع الذي نشب بين المماليك بسبب الحكم .**

2- العصر العثماني :

أصبحت الأقاليم العربية في مصر والشام تحت وصاية الدولة العثمانية ، وذلك بعد زوال دولة المماليك على يد السلطان (**سليم الأول**) سنة 932هـ ، وبذلك وصل الأدب العربي إلى قمة الضعف والابتذال بحيث مال الأدباء إلى الصنعة اللفظية ، وتوقفوا عن الإبداع ، وذلك لجملة من الأسباب نذكر منها :

1- **نقل الكتب وذخائر التراث والعلماء والمهندسين المهرة إلى الأستانة .**

2- **اعتماد اللغة التركية لغة رسمية مما أدى إلى تتريك جميع الدواين .**

3- **إلغاء ديوان الإنشاء.**

4- **إغلاق المدارس .**

ثالثا : عصر النهضة :

حالة الأدب في العصر الحديث :

لقد استطاع الأدب العربي في العصر الحديث أن يخطو خطوات واسعة نحو التطور ، وذلك بسبب تضافر العديد من العوامل المساعدة من بينها :

1- إسهام الحملة الفرنسية التي قادها (**نابليون بونبارت**) في كسر العزلة التي فرضها الحكم العثماني على الأقاليم الواقعة تحت حمايته ، ومن بينها إقليم مصر ، وهو ما أدى إلى تنبيه الأذهان بوجود عالم جديد .

2- اتجاه (محمد علي) إلى أوروبا ، وإرساله البعثات العلمية ، وفتح المدارس ، واستقدامه للمعلمين الأجانب وإنشاء المصانع .

وبذلك بدأت تهب رياح التغيير بسبب:

- الطلبة العائدين من البعثات والإرساليات العلمية .
- التلاميذ الذين تخرجوا من المدارس المصرية .
- ترجمة العلوم والمعارف إلى اللغة العربية .
- طباعة التراث العربي ونشره .

المحاضرة الثانية :

مدرسة الإحياء والبعث

أولا : لماذا سميت بمدرسة الإحياء والبعث ؟

سميت هذه المدرسة بـ الإحياء والبعث ، لأنّ روادها أعادوا للشعر قوته ، وأنقذوه من حالة الخمود ، فكان صنيعهم كصنيع من يأتي عجلة دولاب ساكنة فيعيدها للحركة من جديد ، ويبعث الشعر للحياة ، وذلك من خلال إرجاعه إلى عصور القوة .

البارودي(*) وريادته لمدرسة الإحياء

ثانيا : العوامل التي هيأت البارودي لريادة مدرسة الإحياء والبعث :

1- موهبته واستعداده الفطري .
2- إتقانه اللغة العربية والتركية .
3- الإيمان بعظمة بلده ورغبته في النهوض به .
4- تجاربه العميقة التي مر بها والتي أسهمت في صقل عواطفه .
5- اطلاعه على التراث العربي في عصور ازدهاره وحفظه لروائع الشعر العربي القديم .
6- إدراكه بأن الشعر الجيد يكمن فيما قبل عصور الضعف .

(*) : ولد البارودي بالقاهرة سنة 1838 التحق بالمدرسة الحربية في الثانية عشر من عمره ، وتخرج منها سنة 1854 ، وكان يلقب بـ " رب السيف والقلم " ، وبعد اشتراكه في الثورة العرابية نفاه الاستعمار إلى جزيرة (سرنديب) فكثرت عليه الأمراض وضعف سمعه ، وكف بصره فكتب هنالك قصيدة في الشوق والحنين إلى بلده مصر سماها (سرنديب) وقال في مطلعها :

لكلِّ دمعٍ جرى من مقلةٍ سببُ وكيف يملكُ دمعَ العينِ مُكتئِبُ

وبعد عفو الاستعمار عنه عاد إلى مصر سنة 1900 إلى أن توفي في 12 ديسمبر 1904 .

التجربة الشعرية : أحس البارودي بالظلم الواقع على شعبه بسبب إمعان الخديوي في ظلم الرعية واغتصاب الأرض من أصحابها ، فهب البارودي إلى مهاجمته داعيا الشعب للثورة عليه من خلال قصيدته العينية المشهورة والتي مطلعها :

يَوَدُّ الفتى أنْ يَجْمَعَ الأرضَ كُلَّها إليهِ، ولـمَّا يَدْر ما اللهُ صانعُ
فقد يستحيلُ المالُ حتْفا لربِّـه وتأتي على أعقــابهنَّ المطامعَ

ثالثا : دور البارودي في النهوض بالشعر :

1- من حيث الأسلوب :

انتقل به من التعقيد والغموض إلى السهولة والوضوح ، وذلك بتحريره من قيود الصنعة اللفظية .

2- من حيث العاطفة :

انتقل بالعاطفة من البرودة والجفاف إلى الحيوية والذاتية .

3- من حيث الموضوعات :

البعد عن التكرار والسطحية والاتجاه إلى قضايا المجتمع الاجتماعية والسياسية .

4- من حيث الخيال :

انتقل به من الضيق والسطحية إلى التحليق في عوالم الشعر ، فجعل صوره الخيالية كأنها لوحات متحركة مسموعة ومرئية .

5- من حيث الموسيقى :

حافظ على وحدة الوزن والقافية ، وهو ما جعل موسيقى شعره قوية رنانة .

رابعا : محاكاة البارودي للشعراء السابقين :

قام البارودي بمعارضة الشعراء القدماء في بعض قصائدهم ، فسار غلى وزنها وقافيتها ، ولم يكتف بالتقليد والنقل عنهم بل نافسهم في بعض معانيهم مثل قوله :

فلا تثق بودادٍ قبل معرفةٍ فالحكلُ أشبعُ في العينين بالحكلِ

وهو تقليد لقول المتنبي :

لأنّ حلمكَ حلمٌ لا تكلفه ليس التكحلُ في العينين كالكحلِ

خامسا : تلاميذة البارودي :

من مصر : أحمد شوقي ، أحمد محرم ، حافظ إبراهيم (*).

من العراق : عبد الرحمان الكاظمي ، معروف الرصافي ، جميل الزهاوي .

من سوريا : شكيب أرسلان

كيف كان تلاميذ البارودي يتصلون به ؟

تعددت طرق اتصال هؤلاء التلاميذ بأستاذهم من خلال :

(*) : ولد حافظ إبراهيم على متن سفينة كانت راسية على النيل من أب مصري وأم تركية.توفي والداه وهو صغير. وقبل وفاتها أتت به أمه إلى القاهرة حيث نشأ بها يتيما تحت كفالة خاله الذي كان ضيق الرزق حيث كان يعمل مهندسا في مصلحة التنظيم. ثم انتقل خاله إلى مدينة طنطا وهنالك أخذ حافظ يدرس في الكتاتيب . أحس حافظ إبراهيم بضيق خاله به مما أثر في نفسه فرحل عنه وترك له رسالة كتب فيها:

ثقلت عليك مئونتي * إني أراها واهية**
فافرح فإني ذاهب * متوجه في داهية**

بعد أن خرج حافظ إبراهيم من عند خاله هام على وجهه في طرقات مدنية طنطا حتى انتهى به الأمر إلى مكتب المحامي محمد أبو شادي ، وهناك اطلع على كتب الأدب وأعجب بالشاعر محمود سامي البارودي .وبعد أن عمل بالمحاماة لفترة من الزمن، التحق حافظ إبراهيم بالمدرسة الحربية وتخرج منها ضابط برتبة ملازم ثان في الجيش المصري وعين في وزارة الداخلية. أرسل إلى السودان مع الحملة المصرية إلى أن الحياة لم تطب له هنالك فثار مع بعض الضباط. نتيجة لذلك، أحيل حافظ على الاستيداع بمرتب ضئيل.

عاش حافظ إبراهيم 60 عاما كان شعره فيها بمثابة السجل لجميع ما حدث فيها فقد كان يتربص كل حادث هام يعرض فيخلق منه موضوعا لشعره ويملؤه بما يجيش في صدره.وكان شديد الذاكرة سريع البديهة بشوش مرح وكان أحسن خلق الله إنشاداً للشعر ومن أروع المناسبات التي أنشد حافظ بك فيها شعره بكفاءة هي حفلة تكريم أحمد شوقي ومبايعته أميراً للشعر في دارالأوبرا

توفي حافظ إبراهيم سنة1932 م وحين وصل خبر وفاته إلى أحمد شوقي شرد شوقي لحظات ثم رفع رأسه وقال أول بيت من مرثيته لحافظ:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ** يا منصف الموتى من الأحياء**

1- **المشافهة : مثل حافظ وشوقي**

2- **المراسلة : مثل شكيب أرسلان .**

3- **قراءة أعماله من خلال كتاب (الوسيلة الأدبية) للمرصفي .**

سادسا : خصائص مدرسة الإحياء :

1- **تعدد الأغراض والبدء بالغزل .**

2- **وحدة البيت ووحدة القصيدة .**

3- **إتباع القدماء في موضوعاتهم كالمدح والغزل والرثاء .**

4- **تقليد القدماء في الصور والمعاني والأخيلة .**

5- **العناية بالأسلوب وروعة التركيب .**

6- **استخدام ألفاظ من الشعر القديم مثل : عيون المها .**

سابعا : دور تلاميذ البارودي في تطوير مدرسة الإحياء :

العوامل التي دفعت تلاميذ البارودي إلى التجديد :

قام الجيل الجديد من تلاميذ البارودي بتطوير الاتجاه الذي بدأه أستاذهم البارودي ، وذلك من خلال :

1- **الإيمان بفكرة الجامعة الإسلامية ، واعتبارها رمزا لوحدة المسلمين .**

2- **اهتمامهم بقضايا الأمة مثل : حرية الصحافة ، وتعدد الأحزاب ، وتحرير المرأة .**

ثامنا : مظاهر التجديد عند تلاميذ البارودي :

1- **التعبير عن روح العصر : سياسيا ، اجتماعيا ، ثقافيا.**

2- **الانفتاح على الثقافة الغربية .**

3- **الاتجاه نحو التجارب الذاتية .**

4- **الاهتمام بالجانب البياني .**

المحاضرة الثالثة :

ظهور الكلاسيكية الجديدة

قام تلاميذ البارودي بإتباع منهجه فحافظوا على القديم ، ثم أحدثوا بعض التطوير في هذا المنهج عن طريق ارتباطهم بقضايا مجتمعهم واستفادتهم من ثقافة العصر ، وبذلك تمثلوا فكر " الكلاسكية الجديدة " التي تربط المضمون بالمنحى الذاتي وتأخذ الشكل من القديم .

أ- أحمد شوقي(*) :

اتجهت مدرسة الإحياء والبعث في طريق التطوير على يد تلاميذ البارودي وكان على رأسهم أحمد شوقي الذي اجتمعت له عدة عوامل ساعدته على التجديد وهي :

1- الاطلاع على الأدب الفرنسي .
2- إتقان اللغة العربية والفرنسية والتركية .
3- مجالسة شعراء الغرب وتأثره بالمسرح الأوروبي .
4- دراسة الحقوق .

مظاهر التجديد عند شوقي :

1- الاتجاه إلى التاريخ :

كتب شوقي قصيدة " كبار الحوادث في وادي النيل " مستعرضا تاريخ مصر من عهد الفراعنة إلى عهد " محمد علي " وقال في مطلعها :

(*) : ولد لأب ذي أصول كردية من مدينة السليمانية العراقية وأمه تركية الأصل وكانت جدته لأبيه شركسية وجدته لأمه يونانية
التحق بمدرسة الحقوق ، ثم بمدرسة الترجمة. ثم سافر ليدرس الحقوق في فرنسا على نفقة الخديوي توفيق بن إسماعيل
أقام في فرنسا ثلاثة أعوام حصل بعدها على الشهادة النهائية
نفاه الإنجليز إلى إسبانيا واختار المعيشة في الأندلس وبقي في المنفى حتى عام1920.
وفي الفترة التي قضاها شوقي في إسبانيا تعلم لغتها، وأنفق وقته في قراءة كتب التاريخ، خاصة تاريخ الأندلس
وعكف على قراءة عيون الأدب العربي قراءة متأنية، وزار آثار المسلمين وحضارتهم في اشبيلية وقرطبة وغرناطة .
لقب بأمير الشعراء في سنة 1927. و توفي في 23 أكتوبر 1932 و خلد في إيطاليا بنصب تمثال له في إحدى حدائق روما.

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

2- الاتجاه إلى تصوير المخترعات الحديثة :

ومن ذلك قوله في وصف الطائرة :

أعُقابٌ في عنان الجوِّ لاح أم سحابٌ فرَّ من هوجِ الرياح

3- استلهام التراث الإسلامي :

فمدح الرسول الكريم صلى الله علية وسلّم قائلا :

ولذ الهدى فالكائنات ضياء وفمُ الزّمان تبسمٌ وثناء

4- الاتجاه إلى كتابة المسرحيات الشعرية :

كتب شوقي العديد من المسرحيات من بينها : (علي بك الكبير ، قمبيز ، مصرع كليوبترا ، أميرة الأندلس ، عنترة ، مجنون ليلى ، الست هدى).

ب- أحمد محرم :

طوّع " أحمد محرم " الشعر العربي للقصص الإسلامي فكتب (مجد الإسلام) أو الإلياذة الإسلامية ، وهي تدور حول وصف حروب الرسول صلى الله عليه وسلّم ، ومنها قوله في وصف : غزوة بدر :

الإذنُ جاء فقل لقومكَ أقبلوا بالبيض تبرق و الصوافن(*) تصبحُ(*)

مآخذ مدرسة أصحاب مدرسة الإحياء والبعث :

1- اهتمامهم بشعر المناسبات .

2- تأثرهم بالشعر القديم من حيث البدء بالغزل وتعدد الأغراض .

(*) : الصوافن : الجياد

(*) : تصبح : تصهل

أسباب تمسك الإحيائيين بالقديم :

1- الاعتزاز بالتراث العربي والرغبة في بعثه .

2- مواجهة الاستعمار الذي عمل على إلغاء الشخصية العربية .

وبهذا يكون البارودي قد استطاع إثبات أن العجز والضعف ليس في اللغة العربية ، وإنما يكمن الانحطاط و الجمود في شعراء عصره الذين لم يستطيعوا التحليق في فضاءات الإبداع ، ولهذا فقد انحصرت مهمة شعراء البعث في أنهم نفضوا عن الشعر العربي ما علق به من رواسب عصور الانحطاط ، بأن ولوا وجوههم نحو القصيدة في تلك الفترة العربية التي ازدهر من اليسير على الناظر فيها الشعر ، ووصل ذروة صفائه ونضجه . ولقد بلغوا من ذلك مرادهم ، حتى أصبح في دواوينهم ، أن يتذوق نكهة الشعراء العباسيين والأندلسيين لا في القصائد التي تعمد فيها شعراء البعث أن يعارضوا أسلافهم من الشعراء ، بل في معظم قصائدهم مهما اختلفت موضوعاتهم ومناسباتها .

والحق أن تسمية هذه الحركة بالحركة المحافظة تسمية تنطوي على كثير من الصواب ، فقد تمسك شعراؤها بلغة القدماء وأساليبهم البيانية ، بل لقد تجاوزوا ذلك إلى اقتفاء آثارهم في المعاني والأفكار ، وليس من الصعب تعليل هذه الظاهرة ، فقد كانت ثقافة أغلبية القوم عربية خالصة ، أما الذين أتقنوا منهم اللغة الأجنبية فإن تأثرهم بالأدب الأجنبي ضئيلا.

هكذا يمكن القول بأن نقطة التحول في الشعر الحديث ، كانت انطلاقة تقليدية تلتفت إلى التراث العربي بأكثر مما تلتفت إلى ذات الشاعر وواقعه ، وإنّ هذه الذات ، وذلك الواقع كانا من التوتر والتعقيد بحيث لا يسمحان للموهبة الشاعرة أن ترتد في التماس الوحي إلى ما قبل عشرة قرون .

وعلى كل فقد كان لهذه العودة ما يبررها على عهد البارودي عندما كان الأمر متعلقا بالأساس الذي تقوم عليه ثقافة هي في مرحلة البعث . لكن هذه الضرورة زالت بعد أن أزيح شعار العودة إلى التراث ، ليقوم

مقامه شعار آخر ، هو البحث عن الذات الفردية وتوكيدها ، فكان على شعراء هذا التيار أن يستجيبوا للنداء الجديد ، لكن الحقبة التاريخية التي أمدّتهم بالوسائل الفنية والأجواء العاطفية شدتهم إليها شدا حال بينهم وبين أن يفعلوا ذلك ، فتركوا الباب مفتوحا في وجه التيار الجديد الذي ولد بين أحضان هذه الدعوة وجعل من الاستجابة لنوازع الذات شعاره الدائم .

المحاضرة الرابعة :

التيار الذاتي في الشعر العربي الحديث

بدأ الاتجاه إلى الذات يصبغ المضامين الشعرية الحديثة منذ ظهور جماعة الديوان ، ولكنه لم يتبلور إلا من خلال جهود تيار الرابطة القلمية ، وجماعة أبولو ، ومن ثمة كان علينا أن نهتم اهتماما مناسبا بكل تيار من هذه التيارات لنتبين الخطوات التي خطاها في هذا السبيل :

أولا: جماعة الديوان :

بدأ شعراء جماعة الديوان يبشرون بقيم جديدة تتناغم مع شعار العودة إلى الذات ، ومن بين هؤلاء الشعراء : عبد الرحمان شكري ، وعباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازني .

التقى هؤلاء الشعراء عند فكرة أنّ الشعر وجدان [*] غير أن مفهوم الوجدان عندهم كان متباينا ، فقد أراده العقاد مزيجا من الشعور والفكر ، وفهمه شكري على أنّه التأمل في أعماق الذات تأملا يتجاوز في غايته حدود الاستجابة للواقع ، مستهدفا الوقوف بالشاعر أمام نفسه في أبعادها المختلفة من شعورية

---

[*] : يقول شكري في مقدمة ديوانه ((ضوء الفجر)) : يا طائر الفردوس إنّ الشعر وجدان . ويقول العقاد في ديوانه ((هدية الكروان)) هنّ اللغات ولا لغات سوى التي رفعت بهن عقيرة الوجدان .

ولاشعورية . أما المازني فقد رأى فيه كل ما تفيض به النفس من شعور وعواطف وإحساسات ، ولا ريب في أن هذا الاختلاف في مفهوم الوجدان قد أثمر اختلافا بينا في المضامين الشعرية لهؤلاء الشعراء ، فقد لابس شعر العقاد ميل واضح إلى التفكير ، ولسنا نعني بذلك أنه أكثر من النظم في الموضوعات ذات الطابع الفكري ، بل نعني به أن الطابع الفكري لازم شعره حتى حينما عالج الموضوعات الغنائية الخالصة كالغزل . أما عبد الرحمان شكري فيستمد شعره طابعه المظلم من أغوار نفسه الكسيرة منصرفا عن العقل المحض إلى التأمل في أعماق الذات ، لأن المعاني عنده جزء من النفس لا يدرك بالعقل ، وإنما يدرك بعين الباطن أي القلب :

أقضِي حياتي بنفسٍ لستُ أُدركها ** وحولي الكون لم تُدْرَك مجاليه** [1]

يـا ليت لي نظرةٌ للغيبِ تُسعدني ** لعلَّ فيه ضيـاءُ الحـقِّ يهديـهِ**

وأي سبيل يمكن أن يصل به إلى هذا العالم سوى الخيال الذي يتجاوز عالم الحس :

خِلْتُ أني في النَّوم أُبصرُ حلمًا ** كيف أغفي والقلبُ يقظان صاحي**

عالـمٌ غير عـالمِ الحـسِّ أبغِـي ** فيه عونًـا على الظُّـروف الشِّحـاحِ**

والمتمعن في أشعار شكري يدرك أن نظرته إلى النفس والحياة لم تكن وليدة تدبر فكري كما هو الشأن مع العقاد ، بل كانت وليدة تأمل حر يكتب طبيعته من الرؤيا الشعرية والحدس الغيبي ، وهي نظرة لا تخالف العقاد وحده ، بل تخالف أيضا نظرة المازني ، الذي أحب أن يتعامل مع الأشياء تعاملا أساسه الانفعال المباشر ، بما تنطوي عليه تلك الأشياء من مظاهر مفجعة ، دون تدخل من العقل ، أو توغل في أعماق

---

[1] – من قصيدة ((المجهول)) لشكري

النفس ، لأن من طبيعة الشعر عنده أن ينطلق من النفس بصورة عفوية وطبيعية ناتجة عن تجربة ومعاناة شعورية :

أَكُـلَّما عِـشْتُ يـومـًا ** أَحْسَسْتُ أَنِّي مِـتّــُهُ** [1]

لا أعرفُ الأمن عُمري ** كـأنَّنــي قــد رُزِئْــتُــهُ**

كـأنَّ عَـيــني مَـدْلُــو ** لَــةٌ على مــا كَـرِهْتُــهُ**

ثوبُ الحيــاةِ بغيــضٌ ** يـا لـيتــني مـا لَبِـسْـتُــهُ**

فالشاعر لا يكره الحياة بفكرة نظرية مسبقة ، ولكنه يكرها نتيجة تجربة ومعاناة شعورية .

والحق أن إيمان شعراء هذه الجماعة بقيمة العنصر الذاتي قد استمد أصوله من أمرين اثنين : أحدهما أن شخصية الفرد المصري كانت تعاني من انهيار تام على مختلف الأصعدة ، وأن طبيعة الفترة التاريخية كانت تتطلب منه إعادة الاعتبار إلى ذاته . والآخر تشبعهم بالفكر الحر الذي بسط ظلاله على العقل العربي ، في تلك الفترة من تاريخ الأمة العربية ، وقد أتاح لهم ذلك التتبع أن يعبّروا عن أنفسهم بوصفها قيما انسانية لها وزنها ، وأن يكفوا عن محاولة توكيد الذات بمحاكاة النماذج السابقة ، ولكنهم لم يتح لهم أن يذهبوا برسالتهم الشعرية إلى أبعد من ذلك ، فيرتفعوا إلى مستوى الشعار الذي طرحته المرحلة ، وهدفت من ورائه إلى وعي الذات لنفسها ولظروفها ، وإلى التأهب لخوض المعركة بغية تغيير تلك الظروف التي منعت المجتمع العربي من التحول وبناء الغد الأفضل ، وهذا هو السر في أن اثر الوجدان في شعر هذه الجماعة كان أثرا سلبيا ، يؤثر

---

[1] – من قصيدة ((الملل من الحياة)) للمازني

هدوء الحزن وظلمة التشاؤم على ابتسامة الأمل واستشراف المستقبل ، فحفر بذلك أول قناة مظلمة في طريق الاتجاه الرومانسي الذي أعقب هذا التيار وورث معظم خصائصه التجديدية .

ثانيا : تيار الرابطة القلمية :

وسع شعراء المهجر لاسيما نعيمة وجبران من مفهوم الوجدان لشمل الحياة والكون ، وليس غريبا منهم فقد آمنوا بفكرة وحدة الوجود ، وقالوا بوجود روابط خفية تشد الكائن الفرد إلى الكون جملة ، وأن من شأن هذه الرابطة أن ترفع من مكانة الفرد ، وتقترب من الذات الإلهية ، حتى لتصبح العودة إلى الذات عبارة عن تفتح على العالم بكلياته وجزئياته ((فإذا أغمضت عينيك ونظرت في أعماق أعماقك ، رأيت العالم بكل كلياته وجزئياته ،وخبرت ما فيه من النواميس ، أجل إنك إذا أغمضت بصرك وفتحت بصيرتك رأيت بداية الوجود ونهايته وعلمت أن كل ما في الوجود كائن في باطنك ، وكل ما في باطنك موجود في الوجود .))

بهذا المعنى يكون في وسع الشاعر أن يتعامل مع الحياة والكون عن طريق ذاته ، بل إن هذه هي السبيل الوحيدة للتعامل معها ، لأنّ ((الحياة تنبثق من داخل الإنسان ولن تجيء مما يحيط به)) وحين تنبثق الحياة من النفس ، فإنّها لا تفعل ذلك لتذوب في الكون الخارجي ، ولكنها تنبثق من النفس لتعود إليها : ((إن أنا ينبوع تتدفق منه الأشياء كلها وإليه تعود .))[1] فمن شاء أن يعرف الطبيعة ، فليعرف نفسه أولا ، وإذا هو عرف الطبيعة في نفسه وأحبها فكأنّما أحب نفسه : ((إنما الأرض كلها تحيا فيكم ، وإنّما السموات ، وكل أجنادها حية فيكم فأحبوا الأرض وكل الراضعين من ثديها ، إن شئتم أن تحبوا أنفسكم .))[2]

---

[1]- مذكرات الأرقش لنعيمة ،ص73.

[2]- ((مرداد)) لنعيمة ،ص98.

على هذا النحو فهم شعراء الرابطة الوجدان ، فهو النفس وهو الحياة وهو الكون ، غير أن هذا المفهوم غالبا ما امتزج عند شعراء الرابطة بفكرة الهروب من الناس ومن الواقع والحضارة ، وهو ما جسدته تجربة جبران الشعرية حيث غالبا ما يهرب بأحلامه إلى الغاب :

هل اتَّخـذْتَ الغـابَ مثلي ** منـــزلا دون القصــور**

فـتـَتـَبـَّعْـتَ الـسـواقـي ** وتسلــقــت الصخـور**

وشــربت الفجـــرَ خمـــرا ** في كــؤوس من أثـيـــر**

هل جلستَ العمــر مثلـــي ** بين جنـــات العنــب**

والـعنـاقـيــد تـــدلــَّـت ** كـثـريـات الـذهـب**

وفي الطرف المقابل نجد صورة أخرى للحياة ، وهي تلك الصورة التي يقدمها المجتمع المتحضر ، وهي عند جبران حافلة بالضجيج والخصومة والاحتجاج :

ليت شعـــري أيُّ نفـــعٍ ** في اجتمـــاع وزحـــــــام**

وجـــــدال وضـجـيـــج ** واحـتـجـــاج وخـصـــام**

على أن جبران لم يهرب وحده إلى الغابة ، إذ سرعان ما لحق به صديقه ميخائيل نعيمة :

هــو ذا قـد أقبـلَ أتْـرابي ** أهـــلا أهـــلا بأصحـــابي**

النـَّـاس تسيـرُ إلى القُـدا س ونحـن نَكِـرُّ إلى الغـابِ

وفي قصيدته ((أغمض عيونك)) من ديوانه همس الجفون نجد نعيمة يدعونا مجدا إلى ضرورة التأمل في الذات :

إذا سمـــاؤكَ يـومـــا ** تـَحَـجَّبَـتْ بالـــغيـــوم**

أغمـضْ عيـــونكَ تُبصر ** خلـفَ الغيـــوم نجـــوم**

والأرضُ حـــولـكَ إمَّـــا ** تَـوَشَـحَـتْ بـــالـثـلـــوج**

أغمـضْ عيـــونكَ تُبصر ** تحت الـثـلـوج مـــروج**

وعندمـــا المــوتُ يدنُــو ** واللَّحــد يـفْــغــرُ فـــاه**

أغمـضْ عيـــونكَ تُبصر ** في اللَّحــد مَهْـدَ الحيـــاة**

هكذا نفض نعيمة يديه من مشكلة الشقاء وقهر الزمان والموت ، بالعودة إلى ذاته والإغراق في تاملها .

أما أبو ماضي فقد وجد سبيلا آخر لتحقيق هذه الغاية ، هي الاعتصام بالخيال والابتعاد عن الحضارة لأنها معادل موضوعي للضجيج والازدحام وهذا ما يعبر عنه الشاعر في قصيدته ((طريق إرم)) من ديوانه ((أرواح حائرة)) :

فصاحتِ النَّفسُ بي وقـــالت ** مـــا لـــي وللنـَّــاسِ والزِّحـــامِ**

أصبـتِ يـــا نفـــسُ فـاتبعينـــي ** فلـيس كالغـــابِ من مقـــامِ**

لقد استطاع أصحاب الرابطة القلمية التعبير عن ذواتهم من خلال التماهي مع عناصر الطبيعة إلا أن نظرتهم للحياة ظلت نظرة سوادية متشائمة تدعوا إلى الهروب والاستسلام والخنوع . ولا ريب أن المرحلة التي كتب فيها

شعراء المهجر شعرهم هي مرحلة أخذ فيها الوعي القومي ينتشر فيها فيعكس على الأفراد إحساسا قويا بذواتهم ورغبة عارمة في توكيد تلك الذوات ، وخاصة عندما اطلعوا على الآداب الأجنبية ، والشعر الغربي بالذات وأحيوا فيه نبض قائله ، حتى لنرى الاتجاه الرومانسي عند الغرب يستهوي أفئدتهم المتعطشة إلى الحرية وإلى التعبير عن الذات ، غير أن الحصيلة الشعرية التي أثمرها هذا التعبير عن الذات ظلت مرتبطة بمعاني اليأس والتردد والخنوع والاستسلام ، وهي مضامين سلبية لا تتناغم مع ما يسميه (محمد مندور) ((الوعي القومي)).

ثالثا : جماعة أبولو

كوّن هذه الجماعة (أحمد زكي أبو شادي) سنه 1932 ، ومن بين شعراء هذه الجماعة (إبراهيم ناجي) الذي كان أجود شعره يدور حول المرأة . أما (الصيرافي) فقد انكفأ على نفسه يتحسس جروحها ويتغني بآلامها بينما انصرف (أبو القاسم الشابي) إلى التغني بالجمال والحرية ، فيما راح (عبد المعطي الهمشري) يصف الطبيعة ويستشرف وراء الحياة من خلال الحياة . أما (علي محمود طه) فقد جاء شعره حافلا بمظاهر البهجة والمسرة منغمسا في متع الحياة وملذاتها .

يقول أبو شادي :

شَرِبتُ فلسفتي من نَبْعِ آلامي ** وقَبلها عَبَّ قلبِي الدّامي**

وما برِحْتُ أُغَنِّي زاخِرا أبدا ** كأنَّ آلامَ قلبِي ليست آلامِي**

كأنّ قلبي أناشيدٌ قد احْتَبَسَتْ ** حتى تُراقَ على كُرسيِّ أنغامي**

يتضح من خلال هذه الأبيات أن فلسفة الشاعر هي فلسفة ذاتية تستمد مقوماتها من آلام الشاعر الخاصة .

والحق أن القارئ لشعر أبي شادي ، سواء ما كان منه غنائيا ، أو ما كان موضوعيا كشعر المسرحيات والأوبريت لا بد أن يقع على ملامح من ذات الشاعر ، واقرب دليل على ذلك هذه الأبيات التي وضعها الشاعر في فم أحد أشخاص أوبريت الآلهة :

صفحـًا فَــعُـذري أنَّنِي ** أَلْـقى السَّعــادة فـانيـة**

طَـورا أراهــا في القنــا ** عـــة والــرِّضى والـعافـية**

وهُنيهــةً أبكـــي عليها ** بالـــــدُّمـــوع الـــهاميـــة**

وأرى حـــيــاتي ضُلَّـة ** وأرى الـقنــاعــة جـــانيـة**

وأحـــارُ في أصلي وفي** نفعــي ونفســـي الـدّاهية**

فـأخـِّرُ يومـــا للطبيعــة مــــن شُـجـــونـــي العـــاتيـــة

لكن أعـــودُ إلى العـذا ** بِ وللـــظنــونِ الـطـاغيـة**

فهذا الاضطراب والتقلب وعدم الاطمئنان صفة بارزة في شخصية الشاعر ، لا كما يصوره شعره فحسب بل كما تشخصها وقائع حياته . وهذا الذي قيل فيما يخص شعر الأوبيريت يمكن أن يقال في سائر شعر أبي شادي ((سواء أتحدث عن نفسه أم عن الطبيعية أم في الفلسفة أم في التصوف ، نلمح دائما ذاته في حديثه ومن خلال حديثه ، وذلك لطغيان شخصيته على شعره ، بل طغيانها على حياتها كلها إلى حد امتزجت شخصيته بفنه امتزاجا تاما.

وقد اقترن شعر الطبيعة عند شعراء هذه الجماعة بمعاني الأمل أو معاني اليأس ، وذلك حسب حضور المرأة وغيابها ، فقد تغنى علي محمود طه في قصيدته ((سيرانادا مصرية)) بالقمر الوضاح والضفة الخضراء ، وبالماء والظل وبالورود والندى ، حيث يمتد له ولمن يحب مهد من العشب ، ويلفهما غطاءان من سكون الرياح وغناء البلابل على نحو ما نجده في هذه الأبيات :

على النيلِ وضوءِ القمر الوضَّاح كالطفلِ

جرى في الضِّفةِ الخضراء بين الماء والظلِّ

تعالـــي مثلهُ نَلهو بلَثْمِ الــرُودِ والطـــلِ

هناك على رُبى الوادي لنا مهدٌ من العشبِ

يَلُفُّ الصَّمْتُ روحينا ويَشْدُو بلبلُ الحبِّ

أما (عبد المعطي الهمشري) فقد حمل وحدته إلى قريته ، ليدفن حزنه وألمه في مرجها العاطر ، حيث يمتد بساط البنفسج على الرُّبى الخضراء ، وحيث يسلم البائسون أنفسهم الأخيرة مع المياه العذبة يقول في قصيدته المعنونة بـ ((العودة)) :

أتيتُ لألقـَى في ظِـلالكِ راحــة**فيهــدأُ قلبي وهــو لَهْفانُ حــائرُ**

أموتُ قــريرَ العين فيكِ مُنَعَمًا**يُخَــدِّرُنِي نَفْـحٌ من المــرجِ عاطــرُ**

ويَلْحَفُنِي هـذا البنفسجُ ولْتكنْ**مسارحُ عَيْنَيَ الــرُّبى والمخاضر**

وآخــر مـا أُصغـي إليه الصدَى**خريركِ يَفْنَى وهو في الموتِ سائرُ**

غير أن هروب هؤلاء الشعراء إلى الطبيعة كان من دون جدوى ، إذ زاد احساسهم بالحرمان ، وأكّد في نفوسهم معاني اليأس والجزع والقنوط ، وهو ما أكدته معظم قصائدهم ، ومنها هذه الأبيات من قصيدة ((أغاني الحياة)) لأبي القاسم الشابي :

قدْ رَقَصْنا مع الحياةِ طويـلا ****وشـدونا مع الشبــابِ سِنينَــا

وأَكلنــا التُّــراب حتى مَلَلْنا ****وشَرِبنا الــدُّموع حتى انْتَشَيْنـا

ونَثرنــا الأحــلامَ والحــبَّ والآلامَ واليـأسَ والأسَـى حيث شِينَــا

ثمَّ ماذا ؟ هذا أنا صِرْتُ في الدنيــا بعيــدا عن لهــوها وغناهَـا

في ظـلامِ الفَـنَى أَذْفِـنُ أيَّــا**مِي ولا أستطيــعُ حتى بُكاهَـا**

وزهورُ الحياةِ تَهْوِي بصمتٍ**مُحزنٍ مُضجرٍ على شَفَتَـيْـنَـا**

جَفَّ كأسُ الحياةِ يا قلبِي البا**كِي فهيا نُجَرِّبِ الموتَ هيَا**

إنّ نزعة الانطواء والهروب من مواجهة الحياة ، كانت صفة بارزة في شعر هذه الجماعة ، وهو ما حدا ببعض النقاد إلى القول بأنه عندما انفصل مؤسس الجماعة (أحمد زكي أبو شادي) عن الحياة الأدبية كانت جماعته قد سبقته إلى الانفصال عن الحياة ، سبقه (ناجي) إلى ((ما وراء الغمام)) ، وسبقه (علي محمود طه) إلى ما وراء البحار مع ((الملاح التائه ، وسبقه محمود أبو الوفا إلى معاناة أنفاس محترقة ، وامتدت عملية الانفصال عند الصيرفي في ((الألحان الضائعة)) ، حتى وصلت إلى آخر دواوين (محمود حسن إسماعيل) ((أين المفر ؟)) وتتعدد الاتجاهات التي تختلف في تفاصيلها ، ولكنها تلتقي عند انفصال الشاعر عن مجتمعه .

المحاضرة الخامسة :

قضايا الشعر الجزائري الحديث

أولا : الأمير عبد القادر :

يمكن أن نحصر مؤثرين اثنين في شعر الأمير عبد القادر أو في شخصيته بشكل عام :

1- المؤثر الأسري :

نشأ الأمير عبد القادر نشأة صوفية ، فكان جده مقدما للطريقة القادرية الصوفية في الغرب الجزائري وورث من شيخه هذه الطريقة ، وأنه هو نفسه يعدّ شخصية صوفية عاملة ، وقد عمق الأمير هذا الاتجاه بواسطة قراءاته التراثية ، حيث كان معجبا أشد الإعجاب بشخصية الشاعر المفكر الصوفي ((محي الدين ابن عربي)).

2- سمة العصر :

ظهر الأمير عبد القادر في عصر كان يتسم بالصوفية حتى قيل ((أن الشخص الذي لا شيخ له يعدّ شاذا.)) ، ويعني هذا الانتساب إلى طريقة من الطرق الشائعة في القرن التاسع عشر في منطقة المغرب العربي أمر عادي . ومن أشهر الطرق التي عرفت في الجزائر : الطريقة التيجانية والطريقة الشاذلية

3- الشخصيات التي أثرت في الأمير:

هناك شخصان أثرا تأثيرا كبيرا في شخصية الأمير عبد القادر وصاغا منحاه الصوفي في شعره ، وهما : شخصية الرسول صلى الله عليه وسلّم ، وشخصية المفكر الصوفي ((محي الدين ابن عربي)) . وقد تأثر الأمير

بشخصية ابن عربي حيث كان مولعا بانتاجه الشعري وكثير الاهتمام بتراثه ؛ ففي كتاب ((المواقف)) للأمير نلمس كثير من الاقتباسات والأفكار المأخوذة من كتاب ((الفتوحات المكية)) لابن عربي .

دافع الأمير عبد القادر في كتابه ((المواقف)) عن محي الدين وردّ عنه التهم التي تنسب إليه من قبل بعض الشراح والمحللين لإنتاجه ، ويكف للتأكد من ذلك التمعن في الأوصاف التي كان الأمير يصف بها شخصية ابن عربي ، حيث نجده يصفه بـ (إمام العرفين ، سيد المحقين ، إمام العارفين بالله) وهذه الأوصاف تدل على مدى المبالغة الشديدة في الحكم على شخصية ابن عربي .

وهنالك شخصيات أخرى تأثر بها الأمير كـ (محمد الفاسي) الذي كان مقدما للطريقة الشاذلية في مكة المكرمة ، حيث اتصل به الأمير وعبّر عن مدى إعجابه بشخصيته في قصيدة سماها ((أستاذي الصوفي)) (تحوي 111بيت).

المنحى الصوفي في شعر الأمير :

يتجلى المنحى الصوفي في التراث الشعري للأمير من خلال بعض مؤلفاته الشهيرة ككتاب ((المواقف)) الذي احتوى قصائد صوفية وبعض المقطوعات الشعرية ، وقد بلغت هذه القصائد والمقطوعات في الديوان الذي أشرف على جمعه (ممدوح حقي) نحو ثمانية أعمال وهي على النحو التالي :

1- أستاذي الصوفي : وهي قصيدة طويلة تتكون من 111بيت .
2- قصيدة غيث : تتكون من 8 أبيات .
3- قصيدة مسكين لم يذق طعم الهوى : تتكون من 29 بيت .
4- قصيدة أنا الحب والمحبوب : تتكون من 17 بيت.
5- وحدة الوجود : تتكون من 6 أبيات .

6- هو الظاهر والباطن : تتكون من 6 أبيات .

7- كما كنت : تتكون من بيتين .

ولكن هل يمكن اعتبار شخصية الأمير عبد القادر عتبة النهضة الشعرية الحديثة في الجزائر ، خصوصا وأن حسن السندوبي في كتابه ((أعيان البيان)) الذي طبع في القاهرة سنة1914 يدرج اسم الأمير عبد القادر –شاعرا وكاتبا– بين أعيان البيان في القرن الثالث عشر الهجري ، مقرونا بأسماء أعلام النهضة الفكرية الحديثة في المشرق أمثال (رفاعة الطهطاوي) و (أحمد فارس الشدياق) و (بطرس البستاني) و(ناصيف اليازجي) ؟

ويعتبر (السندوبي) بطل المقاومة الجزائرية غير متخلف عن الطبقة الأولى من أدباء عصره حيث يقول :

" فبطل الجزائر ، وإن كان من أرباب السيف ، فقد كان أخا القلم ، لا يغمد أحدهما حتى يجرّد صاحبه فيبري بالأول الرؤوس والهمام ، ويبرىء بالثاني النفوس من سقام الأوهام . ومثله في أدباء الأمراء كمثل (سيف الدولة بن حمدان) غير أنه كان أوفر ذماما وأوفى عهدا وميثاقا من ممدوح المتنبي . يُسْتَشَفُ من خلال خطبه وكتاباته ، ومن بين قصائده ومقاطع ابياته الطبع وفخامة التعبير . غير أنها كادت تخلو من رونق التجويد ، وبهاء التنسيق ، وأَنَى لمن أَذْهَبَ زهرة حياته في مقارعة الفرسان ، ومثاقفة الأقران وخوض المعامع والحروب ، وحمل الرزايا والكروب ، دفاعا عن الأعراض وذيادا عن الأوطان ، أن ينظر في شعره ونثره نظرة تحسين أو تجميل ، ومن ذا يقول للأمير (جوّد كتابك) . ومع هذا فليس دون الطبقة الأولى من أدباء عصره."[1]

[1]– صالح خرفي : المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، دط، دت ، ص 101–102

ويعقب (الصالح خرفي) على هذه المقالة التي أوردها في كتابه ((المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث)) مقالة السندوبي قائلا: " نصل بهذا أنه لا نزاع في جدارة الأمير بأن يكون بداية نهضة أدبية في الجزائر ، أن لم يكن بأسلوبه الخالي من رونق التجويد ، فبمضمونه البطولي الذي ينفرد به في تلك الفترة . لكن السؤال المطروح : هل الأمير والأمير وحده يكفي مستهلا لنهضة أدبية ، وعنوانا لظاهرة فكرية ؟ " [1]

إنّ هذه التساؤلات تشير إلى أن الأمير يشكل ظاهرة منفردة ، وأن هذه الظاهرة لا يمكن اعتبارها لوحدها عنوان نهضة شعرية حديثة في الأدب الجزائري خصوصا وأن الفترة التي تلت فترة الأمير شهدت فراغا موحشا على الساحة الأدبية حتى مستهل القرن العشرين .

ثانيا : شعر اليقظة (1900-1925)

يصل الباحث في المرحلة التاريخية التي ميزت مطلع القرن العشرين إلى أنّ المتن الجزائري خلال منتصف ذلك القرن تميز بـ :

1- قلة النصوص المكتوبة باللغة العربية بوجه خاص .

2- ضعف النصوص الشعرية التي وجدت ، بالإضافة إلى أنّ مستوى هذه النصوص كان ضئيلا جدا سواء من حيث البلاغة ، أو من حيث البناء الفني والترابط بين أجزاء القصيدة .

وإذا كان الشعر الفصيح على هذا الحال ، فهل يعني هذا أن الواقع الجزائري لم يفرز إنتاجا أدبيا ؟

يطالعنا البشير الإبراهيمي بإجابة عن السؤال الذي طرحناه ، وذلك بعد أن تفحص وقيم الإنتاج الأدبي لتلك الفترة يقول : " وقد اطلعنا (يقصد الأشعار) على أكثرها فإذا هي من لون واحد ، وإذا هي منصرفة في

---

[1]- صالح خرفي : المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث ، ص102.

الغالب إلى مدح المشايخ والكبراء ، وإذا هي أخت الأشعار الملحونة الرائجة في السوق ، لأنها منقطعة الصلة بالشعر في أعاريضه ,اضربه ، ومنقطعة الصلة بالعربية في ألفاظها ومعانيها ، ومنقطعة الصلة بالخيال في تصرفه واختراعه ."[1]

وبهذا يكون الإبراهيمي قد نبهنا للبحث في أجناس أدبية أخرى ، حيث أثبتت الدراسات شيوع السعر الملحون الذي ازدهر ازدهارا واسعا في تلك الفترة ، وذلك بسبب أنه لا يستلزم ثقافة أدبية للشاعر بقدر ما يستلزم حضور موهبة ، لذلك فأن ابرز الشعراء الشعبين الجزائريين ظهروا في تلك الفترة .

غير أنّ هنالك أسباب أدت إلى تراجع وضعف الشعر الجزائري الفصيح من بينها :

السياسة القمعية : تميزت السياسة القمعية من طرف السلطة الاستعمارية بـ :

1- تحويل بعض المؤسسات التعليمية والثقافية إلى مؤسسات ذات أنشطة أخرى كتحويل مسجد ((كشتاوة)) بالجزائر إلى كنيسة وتحويل مسجد ((أبي مروان)) إلى ثكنة عسكرية أو مشفى عسكري

2- تدمير بعض المساجد والجوامع والزوايا.

3- تشجيع السياسة الاستعمارية لاتجاه تربوي جديد يكرس اللهجة الدارجة بديلا عن اللغة العربية الفصحى ، حيث اتخذ هذا الاتجاه منذ 1850 وسيلة للقضاء على الثقافة العربية لمدى ارتباطها بالجانب الديني والحضاري للأمة .

4- هجرة الجزائريين بعد استسلام الأمير ، مما أدى إلى نشوء أزمة تعليمية في الجزائر في القرن التاسع عشر ، وذلك بسبب هجرة المدرسين والمعلمين .

السياسة الاستعمارية مضمونها وغاياتها:

[1]- صالح خرفي : المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث ، ص103.

الباحث في الواقع الثقافي الجزائري في بداية القرن العشرين يفهم أن الحياة العلمية والثقافية تميزت بتأخر كبير وذلك أسباب متعلقة على وجه التحديد بهجرة المثقفين الجزائريين إلى المشرق العربي ، وتذكر الكتب أن عدد المدرسين في العشرية الأولى من القرن العشرين كان قليلا جدا ، كما تقلص عدد المدارس تقلصا كبيرا بحيث تم تحويل الكثير منها إلى مؤسسات ذات أنشطة غير علمية ، إضافة إلى أن الإدارة الفرنسية لم تسهم في بناء المدارس حيث أنه على امتداد أربعين سنة لم تنشأ سوى أربعين مدرسة عبر القطر الجزائريين أربعة وثلاثين منها أنشأت في المناطق المتمدنة ، حيث كان يتواجد الأوروبيون والمعمرون الأجانب أما المناطق الأخرى فلم يزد فيها عدد المدارس عن خمسة فقط ، وبالنسبة للتعليم العربي فقد شهدت هذه المرحلة ضعفا مذهلا حتى إن أحد رواد النهضة العربية بالمشرق حين زار الجزائر وصف الوضعية قائلا : " وأصبحت البلاد وليس فيها من المدارس والجوامع إلا ما يعدّ على الأصابع وقلّ الطلب والمطلوب ، وهجرت ربوع العلم وخرّبت دور الكتب وصارت الديار مرتعا للجهل والجهلاء ، وكادت تنسى اللغة العربية الفصحى . "

وفي عام 1900 عيّنت الإدارة الفرنسية شخصية سياسية جديدة لأول مرّة في تاريخ الإدارة الفرنسية وهو ((شارل جونار)) حيث كان الوالي العام على الجزائر ، حيث تميزت هذه الشخصية بالدهاء والذكاء والليونة والشدّة في آن معا .

وقد حكم الجزائر مدة طويلة وخلال مرحلتين متباعدتين ، المرحلة الأولى امتدت من 1900 إلى 1911 أما المرحلة الثانية فامتدت من 1918-1921 ، ونسب لهذه الشخصية وضع الحجر الأساس لجامعة الجزائر ، كما ينسب لها قانون 1919 والذي ينص على : " توسيع دائرة النواب المسلمين في المجالس المحلية ، ومهما يكن من شخصية ((شارل جونار)) فإن السياسة المرنة التي ظهر بها لا تختلف في أعماقها وغاياتها عن االسياسية التي كان يمارسوها السياسيون ، وأهدافها لا تخرج عن إخضاع الجزائريين والتحكم في مصيرهم ، وبصورة أكثر تحديد فقد تحول الصراع إلى مستواه الحضاري والديني واللغوي ، وذلك من أجل تغليب هوية على هوية ، وعلى العموم فإن

السياسة الجديدة وجدت ميلادها بين الفئات الجزائرية التي تخرجت من مدارس فرنسية ، وكذلك بعض المثقفين الذين أئمة وقضاة ، فقد عبّر الكثير من عناصر الفئات على إعجابه بالسياسة الجديدة وولائه المطلق بها من ذلك فإن الإمام ((محمد الكبير)) مقدّم الطريقة التيجانية افتخر بحبه لفرنسا كما افتخر بأن أحد أجداده كان عدوّ لدودا للأمير عبد القادر ، وأن أحد أجداده سنة 1870 تزوج بفرنسية مسيحية ، وأشرف على حفل الزواج الكردينال (لافيجري) ، وهو شخصية دينية مسيحية وأول من أسس حركة الآباء البيض .

ومدح بعض الشعراء والمثقفين هذه الشخصية رغم ما يتسم به شعرهم من ضعف وضحالة الفكر ومبالغة كبيرة ومن بينهم (شعيب بن علي) الذي كان يتولى منصب قاضي محكمة تلمسان فقد كتب قصيدة طويلة يمدح فيها شارل ، ومما جاء فيها :

والـي على قطـر الجـزائر جهبذا**ذا حكمـة في أمـره مختـار**

لا يـنثنـي عـن رأيـه أو عـزمـه**في حكمـه ليث الشرى (جـونار)**

جـونـار ذلك الـشـهـم من بـه**ارتقت جزائر وسما لها الـمقـدار**

ذاك المرفع في المحـافل قـدره**ذاك السميـدع والـفتـى الـعمّـار**

ذاك الذي يرى الكمال فيما يرى**أهل الشـورى من حزبـه الأحـرار**

أكـرم به من والي أرض مذ غدا**قـطبـا عـليهـا حـكمـه يـدار**

والأديب الجزائري (أبو القاسم محمد الحفناوي) صاحب كتاب ((تعريف الحلف برجال السلف)) كتب قصيدة مدح فيها (شارل جونار) ، وهي تعبّر عن مدى استسلام ومباهاة هذه الفئات بتلك الشخصية السياسية ، كما تعبّر في الوقت ذاته عن المذلّة التي يلقاها مثل هؤلاء المثقفين ، ومما ورد في هذه القصيدة :

في كلّ جيل من الأجيال الخيار**وخيرهم من لــه في العلم أخبــار**

إنّ الباحث في مصادر الشعر الجزائري الحديث وخصوصا في الفترة الممتدة من 1900-1925 يلاحظ دون ريب أن المصدر الفكري والفني في هذه المرحلة يعود أساسا إلى رواد مدرسة النهضة عموما والحركة الإصلاحية خصوصا ، فالشخصيات مثل : محمد عبده ، رشيد رضا ، جمال الدين الأفغاني ، محمد فريد تشكل مصدرا قويا في تجارب رواد تلك المرحلة سواء كانوا شعراء أو رجال إصلاح ، وقد وجدت عوامل تعرف بواسطتها الشاعر الجزائري على إنتاج الأدباء المشارقة والمفكرين وخاصة لإنتاج الإبداعي ، ومن هنا كانت لكتابات : طه حسين عباس محمود العقاد ، وإسماعيل صبري ، أحمد أمين ، مصطفى لطفي المنفلوطي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم فهؤلاء الأدباء والشعراء كان لإنتاجهم تأثيرا قويا على الحركة الأدبية والفكرية في الجزائر ، ويمكن أن نلتمس أهم السبل التي أثر بها إنتاج الأدباء المشارقة على الأدباء الجزائريين ، وما هي القنوات التي اتصل بها المشارقة بالجزائريين

البعثات العلمية ، المنابر الإعلامية ، المدارس الحرة :

1- البعثات العلمية :

أسهمت هذه البعثات في توثيق عرى الاحتكاك والتبادل الثقافي بين الجزائريين والمشارقة الشيء الذي مكن الأدباء الجزائريين على ما وصل إليه المشارقة من إنتاج فكري وأدبي أسهمت في تخصيب قرائحهم وتهذيب أساليبهم الفنية . إضافة إلى اطلاع الأدباء الجزائريين على ما أنتجته الحياة الثقافية والأدبية في المشرق مكّن أولئك من اكتساب أساليب فنية جديدة ، فكان منهم الشاعر والكاتب والخطيب .

2 – المنابر الإعلامية :

من أهمها صحيفة ((كوكب إفريقيا)) لأحمد بن داني 1907 وصحيفة ((الجزائر)) لعمر راسم 1908 وصحيفة ((الفاروق)) لعمر بن قدور1913 وصحيفة ((ذو الفقار)) لعمر راسم 1913 ، وصحيفة ((الإقدام)) التي أسسها الأمير خالد بعد الحرب العالمية الثانية .

2- المدارس الحرة :

كان للمدارس الحرة في الجزائر منذ مطلع القرن العشرين والنوادي والجمعيات الثقافية أثرا بارزا في نشر الشعر الجزائري الحديث . والمؤتمر الإسلامي الذي أسس في قسنطينة سنة 1910 ، ونادي الآداب في العاصمة والترقي ونادي صالح باي بقسنطينة ، فهذه الجمعيات والنوادي وكذلك الصحف أسهمت بحض وافر في احتضان الإبداع الشعري وتنميته ، كما كانت منارات لأحداث فكرية عربية ووسائل لنشر العلم وبث روح اليقظة وروح البعث في شخصية المثقف الجزائري آنذاك.

ومن أبرز الشخصيات الفكرية والأدبية التي ظهرت في تلك المرحلة شخصية : مولود بن موهوب الذي كان مثقفا وشاعرا وخطيبا ، وشغل مناصب في مدينة قسنطينة ، وكا أحد مؤسسي نادي ((صالح باي)) ، ودرس لفترة في الجامع الأخضر ، وقد نشر معظم انتاجه في صحيفة ((كوكب إفريقا)) و((الإقدام)).

ومن أعماله المعروفة : ((نظم مقدمة بن أجروم)) ، ((مختصر الكافي في العروض والقوافي)) ، ((آداب الطريق)) هذا المؤلف الأخير يرد به على الصوفية ، ومن شعره قصيدته الرائية :

إذا جار الزّمان عليك يوما ****فصبرا فالزمان له مـــرور

ولا تنظر لـحـادثة ألمّـت ** فإنّ الفرح يتبعه السرور**

كما ظهرت في تلك الحقبة شخصية (عبد الحميد بن سماية) ، الذي كان من أهم الشخصيات الدينية والعلمية في مدينة الجزائر ، وقد التقى بالإمام (محمد عبده) حين زار الجزائر ومدحه بقصيدة بلغت أبياتها حوالي خمسون بيتا ومما قال فيها :

فأنت لنا شمي تنير على المدى ** أتى نــورها من غيــر أن تطلــع**

أُديرُ بذِكراكَ الذي منكَ قد مضى** فأَشرِبُ كأساً بالصفا المُشَعْشَعِ**

ومن أبرز الشخصيات العلمية والثقافية كذلك (محمد بن عبد الرحمان الهميسي) ، (أبو القاسم محمد الحفناوي) ...إلخ ولعل الإشكالية التي هيمنت على الخطاب الشعري في ذلك الوقت ، هي إشكالية التعامل مع الماضي حيث عبّر الشاعر الجزائري عن هذه المأساة أمثال : الطيب العقبي ، محمد دويدة ، والصحفي الثائر عمر بن قدور بالإضافة إلى محمد السعيد الزاهري ، محمد الهادي السنوسي ومحمد النقالي بن السائح ...

وقد كان الماضي بالنسبة للشاعر عامل امتداد حضاري للأمة ، فقد صار هذا الماضي مصدر إلهام للتجربة الشعرية الجزائرية ، وعليه وقف الشاعر الجزائري مشدودا إليه منبهرا بعظمته ، فكان سبيلا للخلاص من الواقع الراهن المتميز بالجهل والفقر والتشتت ، وكان الشاعر كثيرا ما يبكي الماضي ويتحسر على أمجاده الضائعة ، في الوقت الذي يبدو فيه متذمرا من واقعه المعيشي ، ومن النماذج الشعرية التي صورت هذه الرؤية ما قاله الشاعر (محمد بن دويدة) :

وقفتُ برَسْمِ العَرَبِ وقفةَ خاشِعٍ ****وقلتُ ضياعاً ما نظمْتُ من الدرِّ

معاهدٌ كانت والورى في جهالةٍ ****محطَّ رجالِ العلمِ والعــزِّ والنَّصــرِ

كما خاطب الشاعر (الطيب العقبي) المجتمع الجزائري قائلا :

يا معشرَ القومِ هُبُوا من سُباتِكم ** طالَ الـزَّمانُ وكمْ غنّاَ مُغنِّيناَ**

ولا سميعَ لهـا منكم وكُلـُّكم ** أصبحتم لِقبيلِ المجدِ ناسينَا**

لم يبقَ بعدهم شيءٌ نلـوذُ به ** إلاّ بقيَّـةُ دمـــعٍ في مـآقينَـا**

وللشاعر (عمر بن قدور) قصيدة بعنوان ((دمعةٌ على المِلَّة)) يتحسر فيها على مجد الأمة الزائل ، كما يعتبر الواقع الذي آلت إليه كان نتيجة الخيانة والتخاذل .

وللشاعر (محمد النقالي بن السائح) قصيدة طويلة بعنوان ((الشعب الجزائري)) نشرت عام 1919 بجريدة ((الاقدام)) يصوّر فيها الماضي العريق للأمة من جهة ، ومن جهة أخرى يصوّر فيها الواقع البائس الذي وصل إليه المجتمع الجزائري يقول :

ألسنـا معشراً دانَ لـهُ الـزَّمانُ ****ودوّخـوا الأرضَ تنظِيماً وتمديـدا

آباؤنا قد بنوا فيما مضى شرفا ****بالحزمِ صرحاً على رغمِ المُناوِيناَ

ويقول في تصوير الواقع البائس الذي وصل إليه المجتمع الجزائري :

كيف السبيلُ وقد ضاقتْ مذاهبُنا ** ومَسحةُ الأرضِ لا تكادُ تأوِيناَ ؟**

إنّ الشاعر في تلك المرحلة ركّز على إبراز صورة الماضي الإسلامي ، وما كانت تتميز به الأمة من مجد وسؤدد ضمن سائر أمم العالم ، وفي الوقت ذاته لم يهمل ظروف الواقع المأساوية التي أنتجها الاستعمار ، والمقصود من وراء ذلك أن انبعاث الأمة الإسلامية عامة والجزائرية خاصة لا يكون إلا بنبذ الخلافات العصبية وترك الوهم

والكسل والجهل كما ينبغي التمسك بالقيم الحضارية الأصيلة ، وهي القيم التي جعلت الأمة في ذلك الوقت في موقع القوة والسيادة .

هذا وقد غلبت الروح الإسلامية الإصلاحية التي أحدثتها جهود ((جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)) على إبداعات العديد من الشعراء في ذلك الوقت .

المحاضرة السادسة :

رمضان حمود ونزعة التجديد في الشعر الجزائري الحديث

تمهيد :

ولد الشاعر (رمضان حمود) عام 1906 بمدينة غرداية ، وتعلّم ودرس القرآن الكريم في تلك الناحية ، ثم رحل بعد ذلك إلى مدينة غيلزان أين كان يشتغل والده بالتجارة ، وقد عُرف منذ صغره بحبّ القراءة والمطالعة . انتقل إلى تونس صمن البعثة العلمية التي أرسلت من غرداية ، وكان يرأسها الشاعر الصحفي (أبو اليقظان) . وفي تونس أتاحت له الظروف أن يكتسب ثقافة أدبية جديدة من جهة ، ويطلع على الإنتاج العربي المعاصر من جهة أخرى وخصوصا شعر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومعروف الرصافي . ويروي عنه زميله الشاعر (مفدي زكريا) أنه كان يبيت الليل يحفظ فقرات طويلة من خطب هذين الزعيمين . وقد ظهرت موهبته الأدبية من خلال قراءاته المتنوعة للعديد من الأدباء والشعراء ، حيث كا يقضي ليله في كتابة الشعر والمقالات ، ولم تدم تجربته الأدبية أكثر من أربعة سنوات (1925-1929)وتوفي متأثرا بمرض السل ، وقد كان رمضان حمود مثال المثقف الملتزم بقضايا

وطنه ، حيث شارك في عام 1928 بمظاهرة نظمت في غرداية احتجاجا على زيارة الوالي الفرنسي العام (فيوليت) وقد ألقت عليه السلطات الفرنسية القبض ، فقال قصيدة في السجن يفاضل فيها بين القصر والزنزانة :

سمعتُ أنّ السجـنَ أضيقُ من قصر**** فلقيتُ قعر السجن أحسنُ من قصر**

فمـاذا يفيد القصـر والقلبُ حائـرٌ ؟ ****ومـاذا يضرُّ السجنَ من كان ذا قدر ؟

ومن لم يـذق طعم الـردى بنضالهِ ****يشكـو الأذى والـدَّمعُ من عينه يجري

يعيش كئيبـا حائـرا طـول دهـره ****يـرى من صـروفِ الـدَّهرِ على عُسْرِ

وقد كان رمضان حمود شغوفا بالتجديد لاسيما ما تعلّق بالأساليب الأدبية ، وهو من المثقفين الجزائريين الأوائل الذي نادوا بالتجديد وتطوير الأساليب الإبداعية ، حيث يقول : " **شغفني التجديد في كل شيء ، فما بالك بالأدب الذي هو كل شيء** ." وقد كان متأثرا تأثرا شديدا بمدلولات الإبداع عند الأدباء الرومانسين على الخصوص ، وكان يستمد منهم ومن القلب والروح والطبيعة ، يقول معرّفا الأدب : " **هو مجموع تأثيراتنا وانفعالاتنا النفسية ، ومرآة قوتنا المعنوية** ." وكان رمضان حمود ضد تيار المحافظين من الأدباء ، لذا فقد دعا الأحرار منهم إلى التجديد بقوله : " **دعوا عنكم التكلّف والتطلع في اللغة ، وافرغوا المعنى الجميل** ." وكان لا يؤمن بفكرة تغليب المعنى على الشكل التي كانت سائدة آنذاك ، حيث كان يعتقد أن المتن الشعري هو :" **ما تآلف فيه المعنى مع المبنى** ." بمعنى أن القصيدة الجيدة هي التي تحافظ على التزام المعنى الجميل الراقي واللفظ المنسق والوقع الأنيق ، وذهب إلى أبعد من ذلك فقد كان يعتقد بأن " لكل جيل أدب مخصوص" لا ينبغي للجيل الذي يأتي بعده أن يقلّده فيه ، فحياة الأمس غير حياة اليوم ، وحياة اليوم غير حياة الغد ، كما انتقد

الشعراء المقلدين والمتأثرين بالأساليب الشعرية القديمة ، ففي نظره أنّ هؤلاء لم يأتوا بشيء جديد وإنما مارسوا تشويها على أدب ينتمي إلى عصور خلت ، وأن شعرهم يخلو من النبض والإحساس لذا قال هاجيا إياهم :

أتـوا بكلام لا يحتـرّك ساكنـا**عجـوز له شطـر وشطر هو الصدر**

وقد حشروا أجزاءه تحت خيمة ****كعظم رميـم داخـل ضمّة القبـر

وزين الـوزن الـذي صار مقتضى**بقـافية للشـط يقصفهـا البحـر**

كما كان لرمضان حمود نظرات جريئة حول مقوّمات الشعر العربي ، وبخصوص تعريف الشعر القديم (**كلام موزون مقفى**) فقد عرّفه قائلا: " **الشّعر تيار كهربائي مركزه الروح ، وخيال لطيف تقذفه نفسه لا دخل للوزن والقافية في ماهيته.**" وقال شعرا معبّرا عن مفهومه لشّعر الذي يغاير مفهوم معاصريه ، وأن ليس كل كلام يعدّ من ضرب الشعر ، فالشّعر في نظره يتجاوز تعريف القدماء :

فقلتُ لهم لمـّا تباهوا بقوّتهم**ألا فاعلموا أنّ الشِّعر هو الشعور**

وليس بتنميقٍ وتزويقِ عارفٍ**فما الشِّعرُ إلاَّ ما يجنُّ له الصدرُ**

فهذا خريرُ الماءِ شعرٌ مرسل**وهذا غناءُ الحُبِّ يُنْشِدُهُ المطرُ**

وهذا قصفُ الرَّعدِ الجوُّ ثائرُ**وهذا غرابُ اللّيلِ يطردهُ الفجرُ**

فذاك هو الشِّعرُ الحقيقُ بعينهِ**وإن لم يذقهُ الجامدُ الميّتُ الغِرُّ**

وقد كان لرمضان حمود آراء أخرى حول مفهوم اللغة الشعرية ، فقد هاجم بعض الشعراء المعاصرين له متهما إياهم بإتيان الغريب وغير المألوف والمهمل من الألفاظ ، وانطلق في نقده هذا من نظرته للواقع ، حيث كان يرى أنّ اللغة الشعرية مثل الإنسان تتطوّر وتواكب المراحل الزمنية لذلك كان يرى أنّ الشاعر كي يكون شاعرا معاصرا يجب أن يخاطب الناس باللغة التي يفهمونها ، بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة ، لا أن يكلمونا في القرن العشرين بلغة أمرئ القيس وطرفة والمهلهل والجاهليين الغابرين . وهو بذلك يدعو الشاعر لأن يكون مواكبا لعصره لا متخلفا ، وفي نظره أن لكل عصر آرائه الفكرية والجمالية الخاصة ، كما أن لكل بيئة تأثيراتها على الإبداع ، لذلك فإن الإبداع الشعري في نظره يجب أن يكون متأثرا بالواقع المعيش ، لا أن يجسّد واقعا آخر فيكون غريبا عن مجتمعه . ومن هذا المنطلق كان يرى أن جل الشعراء الجزائريين كانوا يعتنون بالألفاظ ويقلّدون الأساليب الشعرية القديمة . ومما يمكن ملاحظته أن رمضان حمود لم يقتصر في نقده للشعر على اللغة فقط شأن العديد من النقاد ، بل قدّم مفاهيم للغة الشعرية منها : "**اللغة حياة الأمم ومفتاح فخرها واستقلالها.**" وقال أيضا : " **لا تزدهر اللغة إلا في تربة الأدب الحديث** ." وقال أيضا : " **اللغة جسم وروحه الأدب ، ولا معنى لجسم بدون روح** ."

وقد كان لرمضان حمود اجتهادات في تعريف النص الشعري ، وانتقد في الآن ذاته تعريف معاصريه له الذي كانوا متأثرين بتعريف النقاد القدماء ، وقد اعتبر الذين آخذوا بهذا التعريف **نظامون ماديون عبيد التقليد وأعداء الاختراع** ، وقد عرّف الشعر في مناسبات عديدة على خلاف التعريف المتداول عند بعض معاصريه من نقاد وشعراء ، وقد بدا رمضان حمود شاعرا وناقدا متأثرا بالمذهب الرومانسي وبالصحافة الأدبية المشرقية ، سواء ما كتبه الأدباء العرب المعاصرون له ، أو ما اطلع عليه من الأدب الرومانسي الغربي والفرنسي على وجه الخصوص حيث كان متأثرا برواد المدرسة الفرنسية ، ومن تعاريفه للشعر ، هذه المفاهيم التي تشبه إلى حد بعيد مفاهيم شعراء الطبيعة وشعراء الرومانسية ، يقول معرّفا الشعر : " **الشعر وحي الضمير ، وإلهام الوجدان** . " ، " **الشعر**

تموجات روحية تخترق القلوب الحية ." كما كان يعتقد بأنه ينبغي للشاعر أن يكون له أفق إنساني واسع وهو ما عبّر عليه قائلا :" **لو لم تكن للشاعر مزيّة إلا إنسانيته لكفته فخرا.**" ، وقال أيضا :" **الشعر قلب الطبيعة النابض** ." وبهذا يتبين مدى تأثر رمضان حمود بأدبيات المدرسة الرومانسية بالرغم من أنه نشأ في بيئة محافظة وفي مرحلة تاريخية استثنائية ، إلا أنه كان مهووسا بالتجديد ، ومن الداعين إلى الأخذ بالأساليب الجديدة ، ومثلما كان نقده جريئا للشعراء الجزائريين ، فقد نقد أيضا أمير الشعراء أحمد شوقي ، فهو وبعد أن يعترف له بمنزلته الشعرية ومكانته الأدبية الرفيعة ينفي عن شعره صفة التجديد ويعتبره شاعرا محافظا يقول : " **ولكنه مع ذلك لم يأت بجديد لم يعرف من قبل ، أو سنّ طريقة ابتكرها من عنده خاصة به دون غيره ، أو اخترع أسلوبا يلاءم العصر الحاضر ، وغاية ما هنالك أنه جاء بالهيكل القديم للشعر الموضوع في قرون بلى عهدها وداس رسمها ، فكساها حلّة من جميل خياله ورقّة أسلوبه** . " ويضيف في موضع أخر مبينا مواضع التجديد التي ينبغي أن يأخذ بها أحمد شوقي فيقول : " **وأكثر شعره أقرب إلى العهد القديم منه إلى القرن العشرين الذي يحتاج إلى شعر وطني قومي حماسي سياسي يجلب المنفعة ويدفع الضرر ويحرك الخاملين** . " ومن هنا يربط الناقد رمضان حمود رسالة الأدب والشعر على وجه الخصوص بالواقع المعيش ، فهو يؤمن بأنّ للشعر وظيفة اجتماعية كفيلة بتغير الواقع خصوصا وأن وطنه كان لا يزال تحت نير الاحتلال الفرنسي الغاشم ، وبهذا فأن شحذ همم الشعراء وحاملي القلم على تغيير الأوضاع لا يقل عن حمل السلاح ومجابهة العدو وجها لوجه وذلك لأنّ المجابهة ما هي إلا نتيجة منطقية ناجمة عن الوعي الذي يبثه المثقف داخل مجتمعه .